ترجمة وثيقة من اللغة البرتغالية
إلى اللغة العربية

حليمة بنكَرعي
كلية الآداب ــ القنيطرة

I ــ النص الأصلي

Outra do conde de Borba em que se contáo ũas palavras que o conde dise a Alharte, alcaide de jazem, Vindo com poderes d'el-rei Mulei Xeque fazer pazes, em favor do alcaide d'Alcacer Quebir.

Depois de pasada esta guerra, em que oalcaide foi preso e cativo, ficou em muita amizade com o coude de borba, e foi causa que os reis de Portugal e de Féz viéráo a fazer pazes por oito ou dez anos, as quais durárào todo o tempo concertado, e fóráo as aldeas povoadas e o campo cheio de muitos aduares e de muito gado ; e foi causa desta segurança a muita justiça com que o conde os tratava e favorecia, guardando tanta ao mouro como ao cristáo ; e com isto era Arzila e Tanjere abastados de todas as cousas necesarias, porque valia un bom poldro oito, dez Cruzados, e um alqueire de trigo ũa chinfra de doze reais, e quatro galinhas e un galo um real de prata, de preço de vinte oito reais, e um carneiro outro tanto, e a este respeito todas as cousas ; e isto era tanto em avondança que Portugal era abastado e noo era isto muito, nem pera poer espanto, porque un moio de trigo valia em Alemtejo seiscentos reais ; e deste tempo ha muita pesoas vivas que is to viráo.

Pois com esta bonança pasou Arzila e Tanjere todo o tempo das pazes, e acabado foi necesario tornar - se a reformar com novos poderes d'el-rei de Féz, os quais ele de ao alcaide Alharte, pesoa principal e muito se privado, o qual veio ao campo d'Arzila em pesoa d'el rei, trazendo grandes poderes, e que todos os outros alcaides lhe obedecesem ; e chegado ao campo d'Arzila e apousentado no xercão, ouve logo muitos recados ũa va parte a outra, e dali se viéráo a ver no tabuleiro do Facho, vindo o alcaide Alharte acompanhado do alcaide d'Alcacere e de todos os mais do reino ; e pasando aquele dia e outro muitas praticas e rezoes, sem aver concrusáo, por o alcaide Alharte pedir alguns pontos que ao conde pouséráo em algua colera e náo podendo sofrer a muita majestade

e fantesia com que o alcaide vinha, e vendo que o alcaide d'Alcacere, sendo tâo nobre e táo cavaleiro e tendo ũa valerosa pesoa, náo ousava falar e se falava era á vontade do Alharte, se acabou de encender, e com muita colera lhe respondeo diante de outros muitos alcaides : «Alcaide, dizei a el-rei, voso senhor, que donde o alcaide d'Alcacere está, táo leal e táo caveleiro, e que trazendo a lança na máo sabe os negocios da guerra como da paz, e nāo a outro alcaide de Féz que náo sabem mais que, lavando o cú e as máos, ir sua salá ; e com estes tais me náo manda el rei meu senhor de guerra nem de paz tratar.. ; e com estas palavras escandalizou o alcaide Alharte, ainda que fóráo em muito louvor do alcaide d'Alcacere, e logo ouve as pazes por quebradas ; e mandando alevantar todo o campo e aduares e aldeas do campo de Tanjere e Arzila, os fez pasar a ponte d'Alcacere e os levou diante si, ficando, porem, muitas covas de trigo, cevada, adora e asi muito gado e lás e outras causas que náo pudéráo recolher, que depois os moradores d'Arzila por muitas vezes trouxeráo e recolhêráo á vila.

* * *

II — ترجمة الوثيقة إلى اللغة العربية :

خبر عن الكونت دي بوربا[1] يحكي ما قاله الكونت للحارثي، قائد حسّان[2]، الذي حضر إلى المنطقة مبعوثا من طرف مولاي الشيخ[3] لعقد اتفاقية

(1) *o coude de borba* : حاكم أصيلا ما بين 1488 و1514. ولقد خلفه بعد انتهاء ماموريته ابنه البكر *Don João Coutinho*. وابنه هذا هو الذي حكى الخبر المذكور أعلاه. ولقد عرف الكوندي دي بوربا بشجاعته وإقدامه، الشيء الذي كان يجعل أهالي المنطقة تخشاه.

(2) *alcaide de Jazem* : أي قائد قبيلة بني حسان. وهي قبيلة كانت مستقرة بمنطقة الهبط التي تجري فيها أحداث النص. يذكر هذه القبيلة الحسن الوزان في كتابه «**وصف افريقيا**»، الجزء 1، ص. 249.

(3) *Mulei Xeque* : المقصود هو مولاي محمد الشيخ بن أبي زكرياء الوطاسي. حكم منطقة **فاس** كسلطان ما بين 1472 و1505. وكان قبل ذلك — تقول المصادر البرتغالية — «ملكا على بني كرفط، وأصيلا، باعتبار أنه في هذا التاريخ، كانت مملكة فاس تضم ملوكا عديدين ؛ إذ كل مدينة كان لها سيدها، وكل واحد من هؤلاء السادة كان يسمي نفسه ملكا على الأراضي التي يسيطر عليها. فملك فاس كان يتَسَمَّى مولاي أبو زكرياء... وملك أصيلا كان يسمى ملك بني كرفط... وكان مولاي الشيخ أعظم هؤلاء الملوك جميعاً، باعتبار أهمية منطقته من الناحيتين : الديموغرافية والاقتصادية. ولما أصبح على **فاس** بدأت تربطه بالمسيحيين روابط صداقة حميمة، جعلتهم يطلقون سراح كل من أسروه خلال سيطرتهم على أصيلا، كما جعلتهم يوسعون مجال سيطرتهم على منطقة الهبط». المرجع : *Anais de Arzila,* tome I, page 95.

هدنة، لصالح قائد القصر[4]

بعد أن انتهت تلك الحرب[5] التي اعتقل خلالها القائد[6] وأسر، ظلت تربطه[7] بالكونت دي بوربا علاقة متينة[8]، وكان ذلك سبباً جعل ملكي البرتغال[9] وفاس[10] يعقدان اتفاقية هدنة[11] لمدة ثماني أو عشرة سنوات. ولقد دامت الهدنة طوال الفترة المتفق عليها في المعاهدة، هذا ما جعل القرى[12] آهلة بالسكان، والسهول[13] عامرة بالعديد من الدواوير[14] والماشية، ومرد ذلك إلى

(4) قائد القصر الكبير : هو مولاي ابراهيم، وكان شخصية هامة جدا في مملكة فاس بكاملها. ربطته بالكونت علاقة صداقة تطورت بعد أسره إلى صداقة حميمة. ولقد عمرت تلك الصداقة طويلا، إلى أن أصبحا شيخين يعيدان ذكرى ماضيهما المشترك بمنزل الكونت. والقصر الكبير آنذاك كان بمثابة مركز لتوجيه الضربات للبرتغاليين بمنطقة الهبط : «كان قاعدة بلاد الهبط، التي كانت موقد شرارة السلطان المذكور (محمد الشيخ)... مع مجاورته لبلاد الحرب» (**الاستقصا**، الجزء 4، ص 111).

(5) المقصود الحرب التي جرت في غضون سنة 1471م، وكان سببها إلقاء القبض على جاسوس مغربي كان يعمل لصالح الكونت دي بوربا من لدن قائد القصر مولاي إبراهيم، وكان هذا الجاسوس يسمى بُلُولَة.

(6) المعني بالأمر مولاي إبراهيم، قائد القصر الكبير.

(7) أي تربط القائد.

(8) يتحدث عن هذه العلاقة في عدة مناسبات، ويقول إنها بلغت أوجها خلال السنوات الأخيرة من عمله بالمنطقة.

(9) كان ألفونس الخامس هو الذي يحكم البرتغال 1438 ــ 1481م، وكانت سياسته في بدايتها ترمي إلى السيطرة على مملكة فاس؛ ثم بعد ذلك اتجه نحو مملكة مراكش، حيث رمى إلى امتلاكها سلماً، وبذلك يكون قد سنَّ لخلفائه اتجاها سياسيا جديدا قصد السيطرة على المغرب.

(10) هو السلطان محمد الشيخ الوطاسي، السالف الذكر (راجع الهامش 3).

(11) يشير كتاب **الاستقصا**، الجزء 4، ص 120، إلى هذه الهدنة قائلا : «وأثناء الحصار ــ أي حصار السلطان محمد الشيخ لفاس ــ ورد عليه الخبر باستيلاء البرتغال على أصيلا وعلى بيت ماله الذي كان بها، وعلى حظاياه وأولاده، فأفرج عن فاس ورجع مبادرا إلى أصيلا، فحاصرها. ولما امتنعت عليه عقد هدنة مع البرتغال...». ومن ثم تكون هذه الهدنة قد عقدت في غضون سنة 1471م.

(12) *aldeas*.

(13) *campos*.

(14) *aduares*.

الأمن والطمأنينة اللذين عمل الكونت على نشرهما في المنطقة[15]؛ إذ أخضع لقوة القانون المسلمين[16] والمسيحيين على السواء؛ وبذلك أصبحت طنجة وأصيلا تتوفران على كل الضروريات[17]: فمهر جيد أصبح يساوي ما بين ثمانية إلى عشر **كروزادو**[18]؛ وكيل[19] من القمح انخفض إلى **شفرويش**[20] واحد من فئة 14 ريايش[21]؛ أما أربع دجاجات وديك فبيعت فقط بريال فضي من فئة 28 ريايش والخروف بمثل ذلك، وهلم جرا بالنسبة لباقي السلع؛ ولقد كانت هناك وفرة في كل الأشياء[22] إلى حد أن البرتغال بلغ من الغنى مبلغا عظيما؛ إلا أن هذا الرخاء لم يكن عاما بحيث ظلت الأسعار في بعض الأقاليم البرتغالية

---

(15) يعني منطقة الهبط. والمعروف من خلال المصادر أن البرتغال استغلوا الاضطرابات التي تعيشها منطقة فاس ليستحوذوا عليها، ويضيقوا على المسلمين بها، حتى انعزل المسلمون: «إلى الأمصار المنزوية عن الأطراف والقرى النائية عن السواحل...» (**الاستقصا**، الجزء 4، ص 110).

(16) *O Mouro*. وتقول المصادر البرتغالية إنّ ألفونس الخامس كان يُعِزُّ مسلمي بوادي أصيلا وطنجة، لكونهم لم يستجيبوا لدعوة السلطان محمد الشيخ لما قصدهم لإغاثة أصيلا.

(17) يستقيم الكلام بإضافة: «فانعكس ذلك على الأسعار، بحيث أصبح مهرا جيدا...».

(18) *Cruzado*: نقد ذهبي برتغالي، شرع البرتغال في التعامل به سنة 1457م، ويزن تقريبا 3,58 غ، وبه انسلخ البرتغال عن النظام النقدي الإسلامي الموحدي، ليرتبط بالنظام النقدي الأوروبي.

(19) *alqueire*، ويزن تقريبا 13,8 لتراً، ويختلف وزنه اختلافا طفيفا بين إقليم وآخر.

(20) *chinfroes*، والمفرد: *chinfrâo*، وهو الشكل المألوف عند كتابتها، إذ هناك من يكتبها: *chinfra*، كما هو حال النص الذي بين أيدينا. وهو من كسور النقد الفضي الذي هو الريال. وفيما يخص الكسور الفضية نقول بأنه قبل سنة 1472م كان يروج بالبرتغال الـ: *reais grossos* الذي كان يساوي 11 **دنيي** مفصلاً على حساب 68 مارك، و: *demi grossos*. وهذا الأخير عوض، سنة 1472م، بالشفرويش التي كانت من فئة 11 **دنيي** مفصلة على حساب 158 **مارك** عوض 136 بالنسبة لـ: *demi grossos* الذي رغم ثقله لم تكن تتعدى قيمته 10 ريايش، وأصبحت قيمة **الشفرويش** سنة 1489م: **14 ريايش.**

(21) *O reais*: وهو عملة فضية تزن 35 غ عندما تكون وفرة في المعدن الأبيض، ومن كسوره في فترتنا هاته، الكروسو *(grosso)* والدمي كروسو *(demi grossos)* أو الشفرويش.

(22) نشير إلى أن المصادر البرتغالية الأخرى تؤكد ذلك، وتعتبر أن المغرب ما بين 1450 و1550م، كان بمثابة مخزن كبير للقمح، كان البرتغال يتزود منه بالكمية التي رغب فيها.

مرتفعة جدا : فقد كان ثمن مُدٍّ[23] واحد من القمح مثلاً يصل، بإقليم **أَلِتيجُو**[24]، إلى ستمائة ريايش، وهي حالة لازال الكثير من مسني المنطقة يتذكرونها بحكم معايشتهم لها.

وانتهت فترة الهدنة بأصيلا وطنجة على هذا الوضع المزدهر، ومباشرة بعد متمها عمل الكونت على التفاوض مع ممثلي سلطان فاس الجدد[25] قصد تجديد الاتفاق. ولقد كلف بهذه المهمة الجديدة القائد الحارثي، الذي يتميز بشخصية فذة، بالإضافة إلى كونه من خاصة السلطان، ومن ثم كانت له سلطات واسعة، ولقد حضر إلى بادية أصيلا كممثل لشخص السلطان؛ وبالنظر إلى نفوذه كان باقي القياد يطيعونه، وفور وصوله إلى **أصيلا** استقر بشرقان[26]، وشرع الجانبان[27] للتَّوِّ في تبادل الخطابات[28]. وهناك حيث تتراءى هضبة المنارة[29]

---

(23) *Um moio*.

(24) *(Aléteujou) Alemtejo* : إقليم برتغالي يقع في المنطقة الجنوبية الوسطى من البلاد، وكانت له علاقات تجارية هامة مع حصن أكسيم بخليج غينيا، حيث كان متخصصا في تجارة البطانيات المتميزة برباطات مختلفة الألوان يغلب عليها اللون الأحمر والأخضر والأزرق والأبيض.

(25) يقصد خاصة القائد الحارثي.

(26) *Xercáo* : موضع تقدر المصادر البرتغالية أنه يبعد عن أصيلا بنحو **2 لغواش** ونصف أي 12,5 كيلومترا (باعتبار أن اللّكْوَا Legua وحدة قياس برتغالية تساوي 5 كلمترات)، وتقول عن المكان بأنه عبارة عن سهل غزير المياه، وافر الظلال، مما يجعله مقر استراحة ممتاز للمارّين، ولقد كان سلطان فاس كلما حرّك إلى المنطقة حطّ الرحال به ونصب خيامه ومعسكراته، وبه يتخذ قراراته : هل يحرك تجاه أصيلا أم نحو طنجة. ومن ثم يكون بمثابة نُزالة للسلطان. وأشير في هذا السياق إلى مشكل أساسي، يعترض البحث عن مقابل مغربي لأسماء الأماكن والمواضع، وذلك لانعدام مصادر دقيقة متعلقة بهذا الشأن، ولكون طبغرافية المواضع والأماكن كثيرا ما تغيرت.

(27) أي المغربي والبرتغالي.

(28) هذا أمر عادي في علاقة قياد وأشياخ المناطق الموجودة قرب الثغور المحتلة ؛ إذ كثيراً ما كان هؤلاء يتبادلون الخطابات مع ممثلي الدول البرتغالية بالثغور المغربية، لعقد اتفاقيات تسمح للجانب المغربي بالتردد على أسواق المراكز المحتلة مقابل منح الطرف البرتغالي حق المرور عبر أراضيهم، وتقديم إعانات عسكرية كلما احتاجوا لذلك.

(29) *Facho* : وتعني المنار، وكانت تعتبر بمثابة برج مراقبة بالنسبة للبرتغال.

شوهد القائد الحارثي، آتيا برفقة قائد القصر، ومعهما جميع أعيان المملكة[30]. ولقد مرّ اليوم الأول والأيام الأخرى دون أن يتوصل الطرفان لأي اتفاق، الحارثي نص على أشياء أغضبت الكونت، الذي لم يكن ليتحمل الأنفة والعجرفة اللتين ميزتا دخول القائد الحارثي[31]. وبما أن الكونت رجل بعيد النظر لم يرد أن يتكلم، لعلمه أن الكلام يخدم مصالح القائد الحارثي ؛ ورغم حرصه الشديد، فتصرفات هذا القائد أثارته كثيرا، فغضب غضبا شديدا وأجابه الكونت على مسمع من باقي القياد : «أيها القائد، قولوا للسلطان مولاكم بأن قائد القصر الفارس ذا السيف الذي لا يفارق يده، بحكم مكانته وصدقه، واستقامته أحقّ بالتفاوض من أجل الحرب والسلم. فإليه وجب إسناد أمرهما لا لقائد آخر لا يعرف سوى الوضوء والتوجه للصلاة، ومع أمثال قائد القصر أمرني سيدي الملك[32] بالتفاوض من أجل الحرب والسلم». وهذه العبارات أغضبت القائد الحارثي، رغم كون الكونت كان قد أجزل الثناء على قائد القصر، وبذلك يكون السلم قد ضاع ؛ وموازاةً مع ذلك، أمر القائد الحارثي المعسكرات والخيام والقرى الموجودة ببادية طنجة وأصيلا، بالرحيل وجعلهم يعبرون قنطرة القصر وهو يتقدمهم، رغم ذلك الرحيل الشامل تركوا بالمنطقة عدة مخازن على شكل حفر تحمل القمح والشعير والذرة، كما بقي كثير من رؤوس الماشية والصوف، وأشياء أخرى لم يتمكن هؤلاء الراحلون من حملها، ومنذ ذلك الوقت ومسلمو أصيلا يترددون على المنطقة ويحملون ما بقي فيها إلى المدينة.

* * *

III — بعض ما أوقفني في هذه الوثيقة :

أ — الوثيقة ضمن مؤلف «أنايش دي أصيلا» :

لقد وردت هذه الوثيقة ضمن الذيل المخصص للكتاب الأول[33] من مؤلف

(30) يقصد مملكة فاس.

(31) يقصد دخول القائد الحارثي إلى منطقة أصيلا.

(32) أي ملك البرتغال ألفونس الخامس.

(33) *Livro Primeiro*. ويتحدث هذا الكتاب الأول عن فترة حكم الكونت دي بوربا خلال عمله كحاكم بالمنطقة الهبطية.

أنايش دي أصيلا. ولقد قام بجمع تلك النصوص الواردة بالذيل ابن الكونت دي بوربا البكر دون خْوَاوُو كوتنيو(34). ولقد مهد لهذا الذيل بقوله : «بعض غرائب ما جرى في أصيلا أيام حكم الكونت دي بوربا، والتي روى لي أحداثها أبي وبعض الشخصيات التي حضرت حدث السيطرة على أصيلا»(35).

ب ــ الإطار الجغرافي الذي تدور فيه الأحداث الواردة بالنص :

تدور أحداث النص في بادية أصيلا وطنجة، وكانت هذه المنطقة تعرف بمنطقة الهبط. ولقد ضيق البرتغال على أهالي هذه المنطقة بحيث : «استحوذ عَدُوُّ الله على بلاد الهبط وضايقهم بها حتى انحازوا إلى الأمصار المنزوية عن الأطراف والقرى النائية عن السواحل(36)، وإلى درجة أن «الناس لا يستطيعون أن يزرعوا سوى منطقة تقارب مساحتها ستة أميال»(37).

ج ــ معلومات الوثيقة :

مضمون النص تستقطبه وضعية بادية أصيلا وطنجة، خلال فترة الهدنة المعقودة سنة 1471م، وبعدها أي ما بين 1479 و1981م. والسبب في عقد هذه الهدنة اندلاع حرب بين الكونت دي بوربا وقائد القصر الكبير، ثم لم تتجدد بعد أن انتهت الفترة المتعاهد عليها. والمعلومات التي وردت بالنص تنحصر في هذين المجالين : بادية منطقة **الهبط** خلال اتفاقية هدنة سنة 1471م وبعدها.

وسنركز على الأحداث الاقتصادية، الناتجة عن الهدنة، وكذا على حالة البادية بعد انتهاء الهدنة، وفشل التوصل إلى تجديدها، وقبل هذا وذاك، نشير إلى أن سبب اندلاع الحرب التي يتحدث عنها النص، وجود جاسوس مغربي يدعى بُلُولة(38)،

(34) *Dom Joâo Coutinho* سيخلف أباه كحاكم لأصيلا سنة 1514م.

(35) *Anais de Arzila*، ص 95، ويتضمن الذيل ثلاث وثائق. ولقد وردت تلك التي اخترت قصد ترجمتها في آخر الذيل.

(36) **الاستقصا**، الجزء 4، ص 110.

(37) الحسن الوزان، الجزء 1، ص 236 ؛ وذلك عندما يتحدث عن مدينة القصر الكبير.

(38) بلولة *(Bulula)* : أشير إلى أن هؤلاء الجواسيس كانت لهم وضعية متميزة لدى حكام البرتغال، بحيث تعطى لهم جميع التسهيلات، وتلبّى كل طلباتهم، إضافة إلى أنهم يتقاضون أجوراً هامة.

يعمل لصالح الكونت دي بوربا، وينقل إليه أخبار المنطقة غير الخاضعة، والخاضعة له، ويخبره بكل ما يجري، وحدث أن ألقى قائد القصر القبض على هذا الجاسوس، وأمر بشنقه، ثم افتدى نفسه بالعمل لصالح قائد القصر الكبير، ودبَّرا مكيدة للكونت، فتوجه بلولة ليخبر الكونت بأن هناك فلاحين يزاولون نشاطا زراعيا دون إذن منه. وبعد أن تَيَقَّن الكونت من الخبر، توجه لغزو القرية، وبعد أن دخلها أحاط به قائد القصر، فاندلعت حرب بينهما انهزم خلالها قائد القصر وأسر[39]، ثم بعد ذلك عقد ملكا البلدين اتفاقية الهدنة التي هي محور النص. ومن ثم نتبين نوعية العلاقة السائدة بين المركز المحتل وباديته. فهناك إذن صراعات ربما تدوم إلى حين عياء السكان، ومن ثم استسلامهم وخضوعهم ودخولهم في زمرة الأهالي المسالمين. ويكون ذلك عادة عند انهزام القيادة المغربية كما حصل في النص. وعادة ما يتبع ذلك الاستسلام عقد اتفاقية هدنة على مستوى أعلى، أي على مستوى سلطان المنطقة والملك البرتغالي.

وما يهمنا من هذه الهدنة هو نتائجها الاقتصادية والديموغرافية على المنطقة :

فمن الناحية الاقتصادية يتحدث النص عن ازدهار اقتصاد حقيقي، ومن الجانب الديموغرافي هناك انتعاش وارتفاع في عدد السكان عائد دون شك إلى ارتفاع عدد الولادات، وإلى توقف نزيف الحرب.

فمن الناحية الاقتصادية، يُلاَحَظُ أن الهدنة ترتب عنها انتعاش اقتصادي أصبح مع طول مدة الهدنة ازدهارا حقيقيا، استفادت منه بوادي منطقة الهبط، قراها ودواويرها. وفيما يتعلق بمظاهر هذا الازدهار، نلاحظ المعايير المستعملة لقياسه، وهي أسعار المواد الأساسية، مع ادماج الخيول ضمن تلك المواد، باعتبار مكانة الفرس في مجتمع ذلك الوقت ؛ كما نلاحظ أن تلك الأسعار تقيم بنقود برتغالية. ونفهم من ذلك عدم وجود عملات محلية، وعدم رواج نقود سلطان فاس بالمنطقة، ونستنتج من ذلك :

- سيطرة البرتغال على بوادي أصيلا وطنجة، لا على المركز فقط.

---

(39) تخبرنا المصادر البرتغالية بأن هذا الفداء كان مقابل : 15000 دوبرا، و15 أسيراً مسيحياً كانوا محتجزين لدى قائد القصر، و20 فرساً بسروج شرقية تقدم كهدية لملك البرتغال.

• استفادة الدولة المسيطرة، والمراكز الحضرية التابعة لها، من ذلك الازدهار، وكذا الأرياف.

• ذكر العملات البرتغالية، لتقييم الأسعار، لا كعملات تروج بالبلاد المغربية المحتلة. وقد يعني ذلك عدم رواج النقود بين الأهالي باعتبار عدم حاجتهم إليها، فهم يدفعون للبرتغال مايفرضه عليهم حبا وماشية وخيلا.

ومن الجانب الديموغرافي هناك ارتفاع عدد السكان، وتقييم هذا النمو لم يكن بإحصاء، ولكن فقط بحكم العبارات المستعملة : «القرى آهلة».. و«الدواوير عامرة»...

وفيما يتعلق بحالة بادية أصيلا وطنجة بعد انتهاء فترة الهدنة وعدم التوصل إلى تجديدها، فالملاحظ هنا هو كيف أن سكان البوادي، قرى ودواوير، ترحل بكاملها برفقة القائد حال فشل مفاوضات الهدنة، وهذا الرحيل يكون تاما، بحيث يتم حمل كل شيء، فتصبح البادية فارغة بعد أن كانت آهلة بالسكان، وهذه الحالة لاشك أن لها تأثيراً على البوادي، في المستقبل البعيد والقريب ؛ وهذا يفسر ما لاحظه البعض : بأن البوادي المغربية كانت ضعيفة الاستغلال. ولربما تكون هذه الحالة ناتجة عن عدم الاستقرار الذي كانت تعيشه بوادينا في الماضي البعيد، ومن ثم يأتي التفكير في التهاون في العمل مع هذا الوضع المزري. هذا ما يؤدي إلى استغلال سطحي للأرض.

* * *

وما يمكن استنتاجه من هذه الوثيقة، نوجهه نحو إلقاء بعض الضوء على وضعية البلاد أواخر القرن 15م، التاسع الهجري. ونقول :

1 ــ من حيث التسيير الإداري : هناك القائد، وله مكانة هامة في إطار هذا النظام الاداري، وله سلطات واسعة. وعلى ما يظهر كان لكل قبيلة قائدها، وتختلف أهمية القائد حسب أهمية المنطقة، وموقعها كدار للحرب أم لا. ويركز النص على شخصيتين : القائد الحارثي، وقائد القصر، والمقارنة بينهما تفيد لمعرفة الاعتبارات الرسمية في اختيار القائد، وهي اعتبارات ــ كما نرى ــ لا تراعي وضعية القائد الميدانية.

كما توضح الوثيقة نوعية العلاقة بين القائد والسكان، وهي علاقة كما نرى تبين السلطة الواسعة التي يتمتع بها القائد، ومدى خضوع السكان له، بحيث يرحل الجميع بأمر منه.

2 ــ أننا عندما نُدرّس تاريخ التوسع الإيبيري بالمغرب، نركز على سيطرتهم على الثغور، وقد لا نشير إلى سيطرتهم الفعلية على أحواز تلك المراكز، باعتبار أنهم يعيشون من إنتاجها، ويفرضون على الأهالي استغلالها لصالحهم، ويمنعون كل استغلال غير خاضع لمراقبتهم، وإذا رفضت البادية الخضوع والإذعان، يسلب إنتاجها، ويأسر رجالها ونساءها وأطفالها. وهذه الغارات البرتغالية المستمرة ترهق البادية فتضطر إلى الخضوع أو إلى الرحيل.